الأحد 21 من ديسمبر سنة 2008م - 23 من ذو الحجة سنة 1429هـ - العدد 806

واسع الرواية واسع الدراية

Artist:Pike John

سيد عشماوي :كلية الآداب - جامعة القاهرة

المرة الأولي في حياتي أقبل فيها يديه وقدميه، وأنا احترق من الداخل، حيث روحي يعانقها الأسي والحزن، وقلبي يمزقه الحنين، كانت في غرفة الانعاش بالقصر العيني الجديد، حيث كان يرقد رؤوف عباس وهو فاقد الوعي في أوقات كثيرة، كنت متعودا أن أزوره يوميا بعد منتصف الليل، أشد علي يديه، وأدعو له بالشفاء العاجل، وأن يسترد عافيته، بعد طول معاناة مع المرض اللعين، وأن يعود الينا كما كان وأقوي مما كان، فقلبه كان يسع العالم ومن حوله كان من أكثر الناس عطاء للآخرين وأقل عطاء لنفسه، كان الاقتراب منه يشعرك كأنك تقترب من محراب صلاة، كلماته الدالة الحادة القاطعة أحيانا تعيد اليك توازنك النفسي خاصة اذا ألمت بك نازلة، وضاق صدرك بما لا يطاق ولا يحتمل، كان الاقتراب منه نوعا من التطهر للنفس وحماية لها من السقوط في المهاوي والبعد عن اللعب في الظلام ومن وراء ستار، فقد كان انساني الثقافة، انساني الوجدان، اكسبته الثقافة نظرة شاملة للحياة والكون والناس، إيمانه الديني فهم وممارسة. كان له ايمانه الصوفي الذاتي، الحب عنده اتجاه وسلوك ورغبة فهمة في المعرفة، هو التعاون والتسامح، حيث يقترب من ذلك الحب الذي انتهي إليه الصوفيون المسلمون من أمثال محيي الدين بن عربي، وهو القائل:

أدين بدين الحب اني توجهت ركائبه فالحب ديني وايماني

والفكرة الدينية لديه لم تكن تسليما مطلقا بالغيبيات، بل ايمانا بالقيمة العليا والمثلي للدين، بالسمو الروحي الي ما فوق النفس والنزوع الي ايجاد علاقة كونية، لا يفرضها عليه أحد وأن نزعت نفسه إليها وحتمت عليه التفكير فيها، فكما يقول المعري:

ما الدين صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف علي جسد
وانما هو ترك الشر مطرحا ونفضك الصدر من غل ومن حسد

المعرفة العلمية جزء من ايمانه، كان متعلما ومعلما وعالما، كما كان صديقا صدوقا صادق الوعد، يحب العمل ويدعو اليه قبل النظر جد في حركته، لا يبالي بالعوائق أمامه مهما عظمت، كان يذكرني دائما، ردا علي مؤسسة «اللت والعجن» بمقولته «دع الكلاب تعوي والقافلة تسير، وكلما حاول خصومه من مؤسسة الفساد والافساد،

مهاجمته، كان يزداد قوة وايمانا بعدالة قضيته، وكان أشد ما يؤلمه أن قلة من تلامذته والذين لم يكونوا قبله.. لا في العيد ولا النفير« ممن من يده اليهم، وساعدهم، واستطاعوا ان يتسلقوا السلم الوظيفي، قد عضوا يديه بأنيابهم الكشرة، وكان يسعده دائما، وحتي وهو علي فراش المرض، أن يتحلق حوله بعض تلامذته ومحبيه ومريديه، كان يناقشهم في أمور عامة وخاصة يغتبط بهم ويغتبطون به، وكان يري فيهم، كما كانوا يرون فيه، مناط الرجاء والأمل، استفادوا من عقله وسعة فضله، بوصفه »جرثومة الخير الكبري« مع ما يتدفق من قلبه وقوة حافظته التي لا تكاد تنسي ما يمر بها مهما طال الزمان بعد أن رزقه الله بالعلم والعمل به، كان بالنسبة لمحبيه كالمولود الذي خرج من احشاء الأمة المصرية، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذي يبتسم في الوجوه البائسة، هو الشعاع الذي يرسل حرارته الي القلوب الجامدة الباردة، هو المستقبل، علي حد تعبيرات قاسم أمين.
كان مما تفرد به، عزة النفس، وهو الخلق الذي ندر في زماننا، زمن الردة والتردي، لم يظاهر ظالما أو فاسدا لغنم يصيبه، ولا صحب غنيا للانتفاع بغناه، كان يزهد في اعتبارات كثيرة لا حصر لها، يتفاني الناس في تحصيلها والاقتتال من أجل الحصول عليها ، سيرته في النزاهة توضع علي الجرح فيطيب، يتذكر تلامذته عفة نفسه بالامتناع عن التدريس في مرحلة الليسانس وهو في بداية الخمسينيات من عمره وتفرغه للدراسات العليا والبحث العلمي والهم الوطني العام، أي منذ عقدين تقريبا وابتعد عن التربح من بيع الكتب والملازم والملخصات التي يفرض شراءها علي طلاب قسمه وجامعته العريقة، وأصبح التكالب علي الحصول علي الاعداد الكبيرة من الطلاب يمثل هدفا في حد ذاته لهؤلاء القساة غلاظ القلب، متبلدي العقل، حيث تسربت الي الجامعة أخلاقيات الهبش والنشر واقتصاد السوق وتحولت أروقة الجامعة الي ساحة »سداح مداح« لكل من هب ودب.
عزة نفسه تتمثل في مواقف عديدة تتذكر منها علي سبيل المثال لا الحصر، رفضه تقاضي أي مقابل مادي لقاء ترجمته لكتاب .. »تجار القاهرة في العصر العثماني - سيرة أبوطاقية شاهبندر التجار« لنللي حنا، من محمد رشاد صاحب «الدار المصرية اللبنانية« وتتمثل في رفضه العلاج علي نفقة أحد الامراء العرب وأصراره علي تلقي علاجه بالمستشفي الجامعي التعليمي »القصر العيني« التابع لجامعة القاهرة، ويشهد الله أنه كان يستنكف أن يأخذ شيئا من أحد بلا مقابل، حتي ولو كان ثمن جريدة أو مجلة أو كتيب يباع أمام أبواب الجامعة.
رؤوف عباس أحد أبناء مصرنا الفقيرة والتي كان تتوق شوقا لاعلاء قيمة العلم والثقافة، ابن المشروع الوطني في ازدهاره ومده غير المتكرر في ستينيات القرن الماضي وابن انهيار هذا المشروع في السبعينيات في ظل سيادة الاوضاع المقلوبة وانهيار القيمة الحقيقية للعمل الجاد والجهد الجماعي. تصدي بارادة لا تلين وعزيمة صادقة لمظاهر الانهيار، ولو من داخل جامعته، بعد أن يأس الكثيرون واذن حبوا تدريجيا عما هو عام الي ما هو خاص بحثا عن لقمة العيش أو »الستر« كما يدعون، وتناسوا ان »الدنيا طلابها كلاب« وأن هناك »منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال« وان »الكفن ليس له جيوب« هناك من انتهي من العمل بأمور شخصية، وهناك من يتسابق علي المناصب الادارية، خاصة أن المنصب الاداري أسرع وسيلة لتحقيق المكانة الاجتماعية والتربح وتحقيق الذات وفرض ارادة البعض علي آخرين في ظل مناخ فاسد أو مفعم بالفساد، يعلي من أصحاب المراكز الادارية، قليلي الموهبة العلمية والذين بمجرد تركهم لمناصبهم الادارية يتساقطون كأوراق الخريف، ألم نسمع في احدي دعوات الامهات العاميات، دعوة »ربنا يجعلك عميد ورئيس قسم!!« وكأن رئيس القسم ملك غير متوج.
تصدي رؤوف لبعض مظاهر الفساد والافساد، وتحمل الاذني وحق فيه قول أحمد نسيم:

لو كنت ممن تاجروا بضميرهم — للعبت لعبا بالنضار الأصفر
أو كنت ممن يطلبون مراثيا — لشأوت في العلياء نجم المشتري
وسبقت اجرام السماء وفتها — من مظلم في ذاته أو نير

هذا التصدي أدي الي بغض البعض منه.. الشيء الذي يثير الانتباه التفاف مؤسسة الظلم والفساد حول انفسهم متضامنين فيما بينهم، ينهشون بأصابعهم الملوثة بالدماء كل من يتصدي لهم ويتحلقون مفترسين حول جيفتهم «الدنيا جيفة وطلابها كلاب«.

لا يتعظون أبدا من حكمة الشعوب »دنيا تلاهي، عبرها مواهي، تركوها كما هي«، لا يمتلكون الا سلطة ألسنتهم، سلامهم دسائس يحوكونها وتعصات ينفثونها وقضايا يرفعونها.. واللي علي رأسه ريشة يحسس عليها« وهم عاجزون علي مقاومة أفكاره بسلاحه سلاح العلم والبرهان والشفافية والثقة بالنفس، ولسان حاله يردد بيت شعري قديم:

ما كنت أحسب أن يمتد بي زمني — حتي أري دولة الأوغاد والسفل

آمن رؤوف بأن العلم ليس معتقلا عن الانسان، بل مرتبط به، بآماله ومآله، بغاياته وقيمه، العلم ليس طقسا كهنوتيا، تابو يمارس في الخفاء، دون أن يتعرف الانسان علي الأهداف التي تخدمه، بل العلم هو الخادم لبعض أهداف الفاعلية الانسانية، ومن هنا كانت ضربته القاضية لاغتراب الدراسة التاريخية وافتقادها الوعي بأصل الفاعلية العلمية الممتدة جذورها في ممارسات البشر، من هنا ينبع اهتمامه المستمر بالتواصل مع الآخرين، لم يغلق الحدود بين تخصصه وبين سائر العلوم البيئية، من هنا تبلور اهتمامه الثقافي في الفكر والممارسة، ازداد محبة للناس الفاعلين وازدادوا حبا فيه.

لعل ذلك، بعض الاشياء القليلة التي جعلتني كما قلت أقبل يديه وقدميه أثناء مرضه، بعد أن احسن أن الحياة مثل الساقية الدوارة وأن العقد ينفرط، وأن الدنيا لا تساوي جناح بعوضة، وبعد أن احسست انني كلما اقتربت منه ازدت تطهرا، كنت اتلمس فيه تواصلا واعترافا بفضله علي وعلي الكثيرين جدا من أمثالي، محترمين قدره وشاكرين فضله وهو واسع الرواية واسع الدراية «عندما يصير الزمن الي خلود سوف نراك من جديد، لأنك صائر الي هناك، حيث الكل في واحد».

http://akhbarelyom.org.eg:81/adab/articleDetail.php?x=adab2008&y=806&z=1979&m=4